الغزل المصلحي في الشعر العربي القديم من خلال كتاب الأغاني

الدكتور

علي عبد الامام مهلهل الاسدي

ملخص :

يتناول هذا البحث لوناً من الغزل ، شغل حيزاً واسعاً في الشعر العربي القديم ، ولم يدرجه الدارسون ضمن تقسيماتهم ، وهو ما اصطلح على تسميته بـ(الغزل المصلحي أو التكسبي) وهذا اللون من الغزل ينظمه الشعراء تلبية لرغبة خارجية من آخرين ، وليس استجابة لعواطفهم الذاتية المحضة ، فهو ليس عملاً يصدر عن الطبع ، انما هو صناعة مقصودة يلجأ إليها الشاعر المحترف في شيء من التعمد والمراوغة الفنية والأسلوبية لتحقيق منافع الآخر ، يقابل ذلك ما يحصل عليه الشاعر من كسب مادي نفعي جزاءً لنصه المصنوع لهذا الغرض.

Abstract

This research deals with a kind of Flirting poetry which has taken a large space within the ancient Arabic poetry. Scholars and researchers didn't mention this kind of poetry in their subdivisions, and they didn't aware of its exist. We gave the term "profitable Flirting poetry " or " Flirting poetry for earnings " for this kind of Flirting poetry .

This kind of Flirting poetry is rooted to the pre-Islamic age .It was related strongly to the sociologic dimension as a social occasion related to two people : the poet who flirts and the other who is flirted in .

Each one looks after his particular profit or need . He seeks and hopes to get this profit . Usually , this profit will be represented as material things such as money , presents , offerings and gifts from the other person to the poet . In turn , the other person, who is flirted in, will get a specific profit ,this profit don't related to the same flirter(poet) . This way is not familiar in the flirting poetry or in the collections .

Thus , we can say that this kind of flirting is a mixture from the purpose and the mean .These two aspects meet together in the poet's spirit to get his own materialistic profit .At the same time they accomplish the need of the other person .

So we can't get this kind of Flirting away from the general human issues because it expresses a real unbridled emotions towards the other where the poet has seen and lived their events .

مدخل :

كثرت تقسيمات الدارسين للغزل في الشعر العربي القديم ، نظراً لتشعب اتجاهاته ، وتضخم مادته ، وكثرة شعرائه ، فضلاً عن أنه يسلط الأضواء على جوانب واسعة فضفاضة من الحياة الاجتماعية والبيئية والدينية والحضارية.. ومن أبرز هذه التقسيمات ، الغزل الحسي – بنوعيه الفاحش الصريح وغير الفاحش – والغزل العفيف ، والغزل التقليدي ، والغزل بالمذكر ، والغزل الصوفي ، والغزل الرثائي ، إذ يرى دارسوه أنه أصبح في صميم المرثية ، فإن قلت إنها غزلية جاز لك ذلك[١]. ونوع آخر اتفقوا على جوهره ، واختلفوا في تسميته ونشأته ، فطه حسين يسميه بالغزل الهجائي[٢] ، وأحمد الحوفي بالكيدي[٣] ، وشكري فيصل بالسياسي[٤].

ونضيف في بحثنا هذا لوناً آخر من الغزل شغل حيّزاً واسعاً في الشعر العربي القديم ، ولم يدرجه الدارسون ضمن تقسيماتهم ، ولم يلتفتوا إليه في بحوثهم ، وهو ما اصطلحنا على تسميته بـ(الغزل المصلحي، أو التكسبي) وتمتد جذور هذا اللون من الغزل إلى العصر الجاهلي، إذ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبعد السوسيولوجي بوصفه (واقعة اجتماعية) قائمة بين طرفين (الشاعر المُتغزّل/والمُتَغزَّل به أو مَن ينوب عنه) يبحث كلٌّ منهما عن مصلحة محددّة مسبقاً يسعى لأجلها ، ويأمل أن يظفر بها ، وغالباً ما تتمثل مصلحة الشاعر المتغزل بمقابل

مادي نفعي من الطرف الآخر جزاءً لغزله ، كأن تكون (مكافأة مالية ، هدايا ، خلع ، وما شابه...) وفي المقابل يسعى المُتَغَزّل به لفائدة يرجوها ، لا ترتبط بالمتغزل ذاته – كما هو معهود في الغزل ودواعيه – وإنما يأمل من وراء هذا الغزل منفعة خاصة كأن تكون اجتماعية أو عاطفية أو اقتصادية ... وهي ما سيكشف عنها البحث من خلال شواهده وحكاياته.

* * *

وبناء على ذلك فإنّ هذا اللون من الغزل ينظمه الشعراء تلبيةً لرغبة خارجية من آخرين ، وليس بدافع أنفسهم ، أو استجابة لعواطفهم ومشاعرهم الذاتية المحضة. لذلك جاء خلوّاً من الإخلاص والحرقة والنشوة اللاهبة ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الخصائص النفسية أو الشعورية المصطنعة لهذا اللون من الغزل لا تُعْرف إلا بعد معرفة الأحوال والمناسبات الداعية لنظمه ، فقد يُخدع المتلقي أحياناً بغزلٍ لم يعرف مناسبته فيُعجب به ، ويحكم على صاحبه بصدق العواطف ونبلها ، وحرارة المشاعر وعفويتها ، ولكنه – المتلقي – ما أن يقع على مناسبته وبواعثه حتّى يغيّر رأيه ، ويحكم عليه بالتصنع بحثاً عن المنفعة المادية ، لذا فمن المفيد عدم عزل النص عن صاحبه ومناسبته وتجربته الاجتماعية ، وأحواله البيئية والثقافية ، وإلاّ فالوصول إلى حقيقة النص ستبقى غير مكتملة ، فالنص لا يتكوّن من فراغ ، إنما هو – مهما حلّق في آفاق التجريد أو الخيال – له صلات اجتماعية وثقافية ... مختلفة الصور باختلاف المواقف والأحداث والتجارب ، وباختلاف ثقافات الشعوب وعقائدها وتقاليدها وأعرافها. ومن هنا تأتي أهمية المناهج التي لا تجرد النص من سياقه وما يحيط به من ظروف ومتغيرات تفيد في بلورة النص وبيان حقيقة مضامينه.

لهذا يستبين الخلاف بين هذا اللون من الغزل وبين ألوانه الأخرى. صحيح أنّه يهدف إلى التعبير عن قضية ذاتية إنسانية ، أو تجربة عاطفية ما في الحياة ، لكنها لا تعني الشاعر المتغزل (الطرف الأهم من الثنائية) من الناحية العاطفية أو الشعورية ، وإنما كل ما يعنيه ، هو المكافأة المادية المجزية لإبداع خياله ، وقدرته الفنية.

* * *

وكان الأعشى (ميمون بن قيس) من روّاد هذا النمط من الغزل في العصر الجاهلي ، جاء في الأغاني في رواية عن الأصمعي قال : ((جاءت إمرأة إلى الأعشى فقالت : إنّ لي بنات قد كسدن عليَّ فشبب بواحدة منهنّ لعلها أن تَنْفُقَ ، فشَبَّبَ بواحدةٍ منهنّ ، فما شعر الأعشى إلاّ بجزور قد بُعث به إليه ، فقال: ما هذا ؟ قالوا: زُوّجت فلانة ، فشبّبَ بالأخرى ، فأتاه مثل ذلك ، فسأل عنها فقيل : زوّجت. فما زال يشبب بواحدةٍ فواحدة منهنّ حتى زُوّجن جميعاً))(٥).

إن هذا النصّ يموج برؤى ، ويصرح بمواقف لم يعرفها الغزل المعتاد بين العاشقين ، فهو يتّجه إلى مغزى مغاير يختلف فيه عن وظيفة الغزل المعروفة ، ويدور حول حدث اجتماعي نفعي مصلحي يتبلور طرفاه بجلاء ، فهو أولاً : استجابة لرغبة الآخر (أم البنات الكاسدات) وقد تحققت هذه المصلحة بمفعول الشعر السحري ، ووظيفته الإعلامية الدعائية (زواج البنات). وتحققت ثانياً: مصلحة الشاعر المتغزل بإهداء الجزور الأول ، إذ شكّل حافزاً مادّياً مغرياً للتغزل بالثانية من أجل الإنتفاع بجزور ثانٍ ، وغزلية ثالثة بجزور ثالث ، وهكذا تم الأمر واستوى الاتفاق بين الطرفين المستفيدين.

وتكررت التجربة النفعية مع الأعشى على نحو مشابه في حادثة اجتماعية أخرى ، فقد روى الأصفهاني ان (المحلّق الكلابي) كان رجلاً مئناثاً مملقاً ، فحثته امرأته على التعرض للأعشى ، وإغرائه ليمدحه ويشبب ببناته عسى أن يتزوّجن فقال لها : ((ويحك ما عندي إلاّ ناقتي وعليها الحِمل ، قالت : الله يخلفها عليك ، قال : فهل له بدٌّ من شراب ، قالت : إنّ عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها. قال : فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد وابنه يقوده ، فأخذ الخطام ، فقال الأعشى : مَن هذا الذي غلبنا على خطامها ؟ قال المحلّق. قال : شريف كريم ، ثم سلّمه إليه فأناخه ؛ فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ، ثم سقاه ، وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه. فقال : ما هذه الجواري حولي ؟ قال بنات أخيك وهنّ ثمان شريدتهن قليلة...))(٦).

ثم خرج الأعشى صباحاً بعد أن أمضى ليلته معزّزاً ينعم بالشراب، ويتلذّذ بكبد الناقة وسنامها، منزلاً ما ادخرته أم البنات في كمّه ، وقد نال مبتغاه المادي ، وما عليه إلاّ أن يفي بشرط الطرف الآخر ، فقصد سوق عكاظ ، ووقف على سرحةٍ قد اجتمع الناس عليها ، فأنشدهم قصيدة من جياده على بحر الطويل ، ذكر فيها بنات المحلق ، معرّضاً بجمالهنّ وعفّتهنّ ، مطلعها(٧) :

أرِقْـــتُ ومـــا هـــذا السُّـــهادُ المـــؤرِّقُ   ومـــا بـــيَ مـــن سُـــقْمٍ ومـــا بـــي مَعْشَـــقُ

ويقول فيها :

وحــــورٌ كأمثـــــال الـــدُمى ، ومناصـــفٌ   وقِــــدْرٌ وطبّــــاخٌ وصـــــاعٌ وديســـــقُ

فشاع خبرهنّ بعد أن بُثّ من (قناة الأعشى الإعلامية) وهو أشبه بإعلان مدفوع الثمن في المنظور المعاصر ، فرغّب الناس فيهنّ ، ولفت أنظارهم ، وأثار مشاعرهم ، بعد أن حمل ألاعيبه الشعرية ووظفها في مهمة تحريضيّة نفعية مغامرة ، فعمل على وخز النسيج الاجتماعي الساكن حتى يُلفت انتباهه ، ويوجّه عنايته نحو رسالته الشعرية المنطوية على أهدافه المصلحية.

* * *

ومن يتعقب هذا اللون من الغزل في العصر الإسلامي والأموي يتلمسه يسير في الاتجاه الذي سبقه ويدور في فلكه ، إذ يُنظم في نصوص مصحوبة بسرد حادثة اجتماعية ظريفة ، أو مرتبطة بموقف شعبي مثير ، ويفيض كتاب الأغاني بهذا القصص الموثق بالغزل المصلحي ، من مثل حديث الشاعر الإسلامي (نصيب) مع امرأة كانت (بملل)(*) ينزل بها الناس للاستراحة والمبيت والترويح عن متاعب السفر بمقابل مادي ، فنزل بها أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة وعمران بن عبد الله بن مطيع ونصيب الشاعر ، فلما رحلوا وهب لها القرشيان ، ولم يكن مع نصيب شيء ، فقال لها : اختاري إن شئتي ان أضمن لك مثل ما أعطياك إذا قدمت وان شئتي تغزلت فيك بأبيات تنفعك. قالت : بل الشعرُ أنفع إليَّ. فقال :

ألا حَـــيِّ قبـــلَ البـــينِ أمَّ حَبيـــبِ ... وإن لـــم تكـــنْ منّـــا غـــداً بقَريـــبِ

لـــئن لـــم يكـــن حُبَّيـــكِ حُبّـــاً صـــدَقتُه ... فمـــا أحـــدٌ عنـــدي إذاً بحَبيـــبِ

تَهـــامٍ أصـــابتْ قلبـــهَ مَلِيّـــةٌ ... غريـــبُ الهـــوى يـــا ويـــحَ كـــلِّ غريـــبِ

فشهرها بذلك الغزل الرقيق ، وأصابت بقوله فيها خيراً(٨).

إن الدافع المصلحي لنظم هذه الأبيات الغزلية جليٌّ يهمُّ الطرفين ، فقد قضى الشاعر نصيب أوقاتاً هانئة من دون ان يدفع نفقات الفندقة المالية ، يُقابل ذلك ما أصاب المرأة المليّة من نفع ماديّ ، وان جاء لاحقاً للنفع المعنوي المتمثل بغزل نصيب ، إذ شهرها وأغرى الناس في التطلع على جمالها وظرفها ، ومن ثم النزول في رحابها.

ولنصيب حكايات أخرى مع النساء ، فقد سقته إحداهنّ في يوم قائض لبناً وماءً باردين ، وقالت : شبّب بي جزاءً لذلك ، عسى أن يصيبني خيراً. فقال : وما اسمك ؟ قالت : هند. فنظر إلى جبل وقال : ما اسم هذا العلم ؟ قالت : قِناً. ثم تطلّع فيها وأنشأ يقول :

أحِـــبُّ قَنـــاً مـــن حـــبِّ هنـــدٍ ولـــم أكُـــنْ ... أبـــالي أقَربـــاً زادَهُ الله أم بُعْـــدا

ألا إنّ بالقيعـــان مـــن بطـــنِ ذي قَنـــاً ... لنـــا حاجـــةٌ مالـــت إليـــه بنـــا عَمْـــدا

أرونـــي قنـــاً أنظـــر إليـــه فـــإنّني ... أحِـــبُّ قنـــاً إنّـــي رأيـــتُ بـــه هِنـــدا

فشاعت هذه الأبيات وخُطبت هذه الفتاة من اجلها(٩).

ويلقانا من هذا الغزل المصلحي الذي يحوم حول الزواج كثير من القصص ، ومن ذلك ما روي في أخبار الشاعر الإسلامي أبي النجم العجلي ، فقد أتته مولاة لبني قيس بن ثعلبة ، فذكرت له أنّ بنتاً لها أدركت منذ سنين ، وهي من أجمل النساء ، وأمدّهنّ قامة ، ولم يخطبها أحد. فتوسلت إليه أن يذكرها بشعره على أن تهب له مالاً . فأبرم معها العقد ، بعد أن عرف اسم ابنتها ، وطلب شيئاً من أوصافها ، فقال :

نفـــيسَ يـــا قتّالـــةَ الأقـــوام ... أقْصَـــدتِ قلبـــي مِنـــكِ بالســـهام

ومـــا يصـــيبُ القلـــبَ إلاّ رامٍ ... لـــو يعلـــمُ العِلـــمَ أبـــو هشـــامِ

ســـاقَ إليهـــا حاصـــلَ الشـــام ... وجزيـــةَ الأهـــواز كـــلَّ عـــامِ

ومـــا ســـقى النيـــلُ مـــن الطعـــامِ ... إذ ضـــاقَ منهـــا موضـــعُ الادغـــامِ

أجـــثُمُ جـــاثٍ مســـتديرٌ حـــامِ ... يَعَـــضُّ فـــي كـــينٍ لـــه تُـــؤامِ

عضّ النجاريَّ على اللجامِ

ومضت أيام قليلة فسمع زمراً وجلبة ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : نفيسة تزوّجت(١٠).

ومن الملاحظ أن الشاعر هنا صاحب حرفة نادرة ، فهو مقصود وليس قاصداً ، مُرتجى ، يقوم بدور العرّاف أو الحكيم الذي يجس ويطالع ويتأمل ، يشخص الحالة ، ثم يصف الدواء ، إنه يسأل عن الاسم والعمر ،

ويعرف الماضي ويكشف الحاضر ويستشرف المستقبل ، يدقق في جسد المرأة فيخفي عيوبها ويبرّز مواضع الجمال فيها ، وكل ذلك من أجل ترويج بضاعتها وتزجيتها.

وعلى شاكلة هذا اللون من الغزل وحكاياته الظريفة ، يُروى انّ تاجراً من أهل الكوفة قَدِم المدينة ومعه خُمْرٌ (جمع خمار) مختلفة الألوان فباعها كلها إلاّ ذات اللون الأسود ، إذ لم تَقْدِم نساء المدينة على الشراء منها ، فكسدت ولم تَنْفُق ، فاغتم التاجر لذلك وقصد الشاعر (مسكين الدارمي) فشكا إليه ، فقال له لا تهتم فإني سأروّج لك تلك الخمر حتى تبيعها أجمع ، ولم يلبث أن أنشد أبياتاً يقول فيها :

قـــلْ للمليحـــةِ فـــي الخمـــار الأســـود ... مـــــاذا صـــــنعت بناســـــكٍ مُتعبّـــــدِ

قـــد كـــان شـــمّرَ للصـــلاةِ ثيابَـــه ... حتـــى قعـــدت لـــه ببـــاب المســـجدِ

رُدّي عليـــــه صـــــلاته وصـــــيامه ... لا تفتنيـــــه بحـــــقّ جـــــاه محمـــــدِ

وتغنى في الأبيات وشاعت في الناس ، فلم تبق بالمدينة ظريفة إلاّ اشترت خماراً أسود ، حتى نفذ ما كان مع التاجر العراقي من الخُمر السوداء(١١). ولا يخفى على المتلقي ما في هذه الحكاية من مصلحة تجارية نفعية بين التاجر والدارمي ، وان لم يصرّح صاحب الأغاني بمكافأة الدارمي أو هديته مقابل ترويج الخمر بغزله ، إلاّ أنها حاصلة مؤكّدة عاجلاً أم آجلاً.

ومتتبع هذه الحكايات وما يرافقها من غزل – وان كان في جوهره خلوّاً من العواطف والأحاسيس الصادقة – يخلص إلى مدى إحساس الناس في ذلك العصر بأهمية الغزل وذيوعه السريع، ودوره في الانفعال الذاتي والجماعي، فهو غنيّ رحبٌ، يُداعب العاطفة ويناغي الروح ، لا يرتبط بسياقه الذاتي فحسب ، إنما ينمو ويتكامل في سياق عام متعدد وطويل من العلاقات الثقافية والاجتماعية والبيئية ... ومن هنا فاننا نعرض بالحديث عن هذا اللون من الغزل بوصفه غزلاً تكسبيّاً ، فهو في كثير من نماذجه شبيه بالمدح التكسبي ، بل انه يغدو مدحاً تكسبياً نفعيّاً بعينه ، ومن ذلك أن السيدات والآنسات الشريفات بمدن الحجاز ، وغيرها من الحواضر الإسلامية ، كنّ يتعلقن بهذا اللون من الغزل ، ويفضلن ذكر أسمائهنّ فيه صراحةً وفي مقدمتهنّ – مثلاً – الثريا بنت علي بن عبد الله بمكة، وعائشة بنت طلحة بالمدينة ، وفاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية، وليلى بنت الحارث البكرية(١٢). فقد كنّ جميعاً لا يجدن حرجاً في ان يُذكرنَ على ألسنة الشعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة وكُثيّر ونصيب والأحوص ، لأن في ذلك تنويهاً بجمالهنّ وظرفهنّ تتناشده البيد والحواضر ، ومعروف أن النساء يعجبهنّ الثناء والمديح من قديم ، وهذا ما نلمسه جليّاً في جواب عمر بن أبي ربيعة لسؤال سليمان بن عبد الملك عندما قال له : ((ما يمنعك من مدحنا ؟ قال : إني لا امدح الرجال ، إنّما امدح النساء))(١٣). وكأنّما كان للغزل في تلك الحواضر والمدن وظيفة هي أشبه عملاً بما تقوم به بعض القنوات الفضائية المعنية بالمرأة وقوامها في وقتنا الحاضر ، فكما أنّ المرأة في عصرنا تشعر بالغبطة والكبرياء حين يشار إلى جمالها ورشاقتها ، كذلك كان الغزل الذي يتغنى فيه المغنون والمغنيات بالحواضر ، يحمل صوراً مبثوثة تدخل كل بيت بفعل الأصوات المطربة ، تظهر فيها – دون أيّ حرج – صورة المرأة وجمالها ، فكان هذا اللون من الغزل دعايةً للنساء وضرباً من الإعلان في التفاخر بنعمتهنّ وترفهنّ ، فقد نظرن إلى الشاعر المتغزل بوصفه (فناناً) كُلِّفَ بالحديث عنهنّ ، ووصف زهوهُنّ ودلّهنّ ، لأن هذا الغزل يعطي المرأة شهادة حسن وجمال تحلم بها ، ومن أجل هذا أخذن يتصلن ببعض الشعراء ، ويغدقن عليهم الأموال والهدايا ، وقد يحتلن أحياناً للوصول إليهم متحديات التهديد تارةً ، وعزّة المقام حيناً آخر، فهنّ في مسابقة للجمال ولفت الأنظار ، ولا يعنيهنّ إلا كسب المزيد من الشهرة ولو كان ذلك على حساب فرع من فروع الدين ، كما يجسد ذلك قول عمر(١٤) :

أوْمَـــــت بعينيهـــــا مـــــن الهـــــودج ... لـــــولاك فـــــي ذا العـــــامِ لـــــم أحْجُـــــجِ

أنـــــت إلـــــى مكـــــة أخرجتنـــــي ... ولـــــو تركـــــتَ الحـــــجَّ لـــــم أخـــــرجِ

وهكذا فان شريفات بني أمية وغيرهنّ كُنّ يطلبن أن تظهر أوصافهنّ في ذلك الغزل بمقابل مادي أو هدايا ثمينة ، حتى شملت هذه الأعطيات المغرية مَن ترفع من الشعراء عن العطاء مثل عمر بن أبي ربيعة ، ومن ذلك ما رواه صاحب الأغاني من أن أم محمد بنت الخليفة مروان بن الحكم أرسلت إلى عمر ألف دينار ، كي يذكرها في غزله ، حتى يطير اسمها على الأفواه(١٥). وروى أيضاً ان أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك طلبت – حين حجّت – إلى الشعراء أن يشببوا فيها فتشجعت طائفة منهم بعد أن أغريت بالأموال ، وأحجمت طائفة أخرى فاكتفت بالغزل في بعض جواريها(١٦). وتعرضت بنت عبد الملك بن مروان لعمر بن أبي ربيعة أثناء حجّها وكانت تحبّ أن يقول فيها شيئاً من الغزل ، يمدحها فيه ويتغنى بجمالها ، وقد أغدقت على كلّ بيت عشرة

دنانير. فنظم تلبية لطلبها(١٧) :

راعَ الفــــؤادَ تفــــرّقُ الأحبــــابِ يــــومَ الرحيــــلِ فهــــاجَ لــــي أطْرابــــي

وهي لوحة عذبة محمّلة بمعاني الحب والرومانسيّة الحالمة. ثم أنشدها بائية ثانية طويلة ، مطلعها :

هــــاج قلبــــي تَــــذَكُّرُ الأحبــــابِ واعترتنــــي نوائــــبُ الأطــــرابِ

يقول فيها :

أقتلينــــي قَــــتْلاً ســــريعاً مُريحــــاً لا تكــــوني علــــيَّ ســــوطَ عــــذابِ

شــــفّ عنهــــا مُحَقّــــقٌ جَنَــــدِيٌّ فهــــي كالشــــمس مــــن خــــلال ســــحابِ

والمتأمل في هذا اللون من الغزل ، على الرغم من بواعثه المصلحية ، يجده انعكاس فنيّ رائع البناء والصور ، يعبر عن روح المجتمع ومناخه العام ، ويصوّر الراهن فيه ، وما يستشعره الآخر من رغبات مأمولة ، وأشواق قصيّة ، وبذلك فهو يتمتع بخصائصه الفنيّة والذاتية – شأنه شأن بقية أغراض الشعر – وفي الوقت ذاته يكوّن بنية حيّة فاعلة لسمات مجتمعه وروحه الواقعية.

وإذا كان هذا موقف النساء الشريفات من الغزل يتلقفنه ويعجبن به ، ويتمنين أن تُسطّر أسماءهن فيه ، فيبذلن للشعراء أموالاً وهدايا مغرية جزاء لذلك ؛ فإنّ الخلفاء والأمراء ومَن لف لفّهم يقبلون على سماعه ، ويوجهون الشعراء إلى القول فيه ، ويبذلون الأعطيات الوفيرة لمن يجيده ، فقد روى أبو الفرج الأصفهاني(١٨) خبراً عن الوليد بن يزيد مع الشاعر يزيد بن ضبّة ، إذ خرج الوليد للصيد ومعه يزيد ، فاصطاد على فرسه السندي صيداً وفيراً ، وطلب إلى يزيد أن يصف له فرسه ، ففعل ، فقال له : أحسنت الوصف يا يزيد وأجدته ، فاجعل لقصيدتك غزلاً وأعطه الغزيّل وعمر الوادي حتى يغنيا فيه ، فقال يزيد ملبيّاً رغبة الخليفة بلا تردد ، وكأنّه العاشق الصبّ والمتيم الولهان ، بعد أن استشعر العطاء ، واستبشر المكافأة :

إلــــى هنــــدٍ صــــبا قلبــــي وهنــــدٌ مثلُــــها يُصْــــبي

وهنــــدٌ غــــادةٌ غيــــدا ءُ مــــن جُرْثومــــةٍ غُلْــــبِ

ومــــا إنْ وجَــــدَ النــــاسُ مــــن الأدواءِ كالحــــبّ

لقــــد لــــجَّ بهــــا الاعــــرا ضُ والهجــــرُ بــــلا ذنــــبِ

وَلَمّــــا أقضــــي مــــن هنــــدٍ ومــــن جاراتهــــا نَحْبــــي

أرى وجــــدي بهنــــدٍ دا ئمــــاً يــــزدادُ عــــن غــــبِّ

وقــــد أطوَلــــتُ إعراضــــاً ومــــا بغضُــــهُم طِبّــــي

ولكــــن رقبــــةَ الأعــــ ـــينُ قــــد تحجــــزُ ذا اللّــــبِّ

وَرَغْــــمُ الكاشــــح الراغــــ ـــم فيهــــا أيســــرُ الخطــــبِ

* * *

وما أن ندخل في أجواء العصر العباسي حتى نجد هذا اللون من الغزل – المصلحي التكسبي – يشكل ظاهرة ملموسة لاسيّما بالعراق في قصور الخلفاء والأمراء ودور رجال الدولة وأعيانها. ومن الملاحظ أن الشاعر العباسي لم يعد يتغزل في المرأة الحرّة الشريفة ، كما كان الشأن غالباً عند شعراء العصر الأموي في بيئة الحجاز ، فقد خرجت تلك المرأة من سوق الغزل وإعلاناته المروّجة لجمالها ، وحلّت محلّها الجارية (أَمَة ، قينة ، ساقية ، ...) وكان ذلك كما يرى د. شوقي ضيف سبباً في أن يخرج الشعراء عن دائرة العفّة والطهر للمرأة ، إلى دائرة الصراحة المكشوفة(١٩).

ومن حكايات الجواري والإماء في قصور الخلفاء العباسيين وما نتج عنها من غزل نفعيّ مصلحيّ، ما رواه أبو الفرج(٢٠) إذ قال : دخل بشار على المهدي وقد عُرضت عليه جارية مغنية ، فسمع غناءها فأطربه ، وقال لبشار : قل في صفتها شعراً ، فأنشد غزلاً رقيقاً بعد ان تلمظ ، وقد خُيّل إليه سماع صوت دنانير المهدي ، وتحسس ملمسها ، وشمّ رائحتها الممزوجة بعطر المغنية وطيبها ، فقال :

ورائحـــــةٍ للعـــــين فيهـــا مَخِيلَـــــة ... إذا بَرَقَـــتْ لـــم تســـقِ بطْـــنَ صَـــعِيدِ

مـــن المســـتهلات الســـرور علـــى الفتـــى ... خفـــا بَرقُهـــا فـــي عَبقَـــرٍ وعُقُـــودِ

كـــأنّ لســـاناً ســـاحراً فـــي كلامهـــا ... أعـــينَ بصـــوتٍ للقلـــوبِ صَـــيُودِ

تُميـــتُ بـــه ألبابَنـــا وقَلوبَنـــا ... مـــراراً وتحيـــيهنّ بعـــد هُمُـــودِ

وهناك مواقف لا تخلو من طرافة تدور أحداثها في قصور الخلفاء ، شكّل الغزل المصلحي نقطة تحوّل في مجرى أحداثها ، منها أنه كان للرشيد جارية حسناء اشتراها من إبراهيم الموصلي بسبعين ألف درهم ، تدعى (ذات الخال) فدعته ليلةً للخلوة بها ، وخرج للقائها فاعترضته جارية ثانية ، فدخل وأقام عندها ، فشقّ ذلك على ذات الخال ، وتوهجت غيرتها ، وقصّت الخال الذي كان في خدّها بالمقراض ، وبلغ ذلك الرشيد ، فندم وخرج من موضعه ، وقال للفضل بن ربيع، انظر من بالباب من الشعراء ، فقال: الساعة رأيت العباس بن الأحنف ، فقال : أدخله ، فعرفه الرشيد القصة ، وقال : إعمل في هذا الموقف شيئاً على معنى رسمه له ، فعمل غزلاً أصلح فيه الجفوة بين الرشيد وجاريته ، فقال :

تَخَلَّصْـــتُ مِمّـــن لـــم يكُـــنْ ذا حَفيظَـــةٍ ... وملـــتُ إلـــى مَـــنْ لا يُغَيّـــرُهُ حَـــالُ

فـــإنْ كـــان قَطْـــعُ الخـــالِ لمّـــا تطلّعـــت ... علـــى غَيرِهـــا نَفســـي فقـــد ظَلِـــمَ الخـــالُ

فنهض الرشيد إلى ذات الخال مسرعاً ، مسترضياً لها بهذين البيتين ، وأمر للعباس بألفي دينار(٢١). لأنّه عبّر عن شعوره بالذنب ، والتمس له العفو من جاريته.

وكثيرة هي المهمات الغريبة للشعراء في قصور الخلفاء والأمراء ، فقد تعددت المواقف والحكايات ، وأصبح الغزل مورد رزق وفير لكثير من شعراء البلاط العباسي ، بعد أن تحوّلت قصور الخلفاء ، ودور الأمراء إلى مواطن أنس وطرب ، يجتمع فيها طلاب اللهو واللذّة ، فلم يعد المديح وحده رائجاً في العصر العباسي ، يقيت العيال ، ويدعم الجيوب ، وإنّما صار للغزل وظيفة تكسبية تنافس المديح ، لاسيّما عندما يتوافر له المسوّغ المناسب ، أو الدافع المثير.

وقد روى صاحب الأغاني كثيراً من المهمات الغزلية التكسبية الغريبة التي تعهد بها شعراء ظرفاء عادت عليهم بكسب وفير. منها – على سبيل المثال – ما قام به الحسين بن الضحاك في رتق جفوة حدثت ليلة بين الواثق وإحدى حسناواته ، وقد حدّثنا الشاعر نفسه عن القصة ، وسنوردها مع أبياتها الغزلية – على الرغم من طول الاقتباس – حتى يتبين للمتلقي مناسبة هذا الغزل ودواعيه ، لأنّه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحدث الباعث إليه ، قال الحسين : ((كانت لي نوبة في دار الواثق أحضُرُها جلس أو لم يجلس . فبينا أنا نائم ذات ليلة في حجرتي ، إذ جاء خادم من خدم الحرم ، فقال : قم فإنّ أمير المؤمنين يدعوك . فقلت له : وما الخبر ؟ قال : كان نائماً والى جنبه حظيّة له فقام وهو يظنها نائمة، فألمّ بجارية له أخرى. ولم تكن ليلة نوبتها، وعاد إلى فراشه ، فغضبت حظيته وتركته حتى نام، ثم قامت ودخلت حجرتها، فانتبه وهو يرى إنها عنده فلم يجدها ، فقال : أُختُلست عزيزتي ويحكم أين هي ! فأُخبر إنّها قامت غضبى ومضت إلى حجرتها ، فدعا بك. فقلت في طريقي :

غضـــبت أن زرتُ أخـــرى خِلْســـة ... فلـــها العُتْبَـــى لـــدينا والرضـــا

يـــا فَـــدَتكِ الـــنفسُ كانـــت هفـــوةً ... فاغفِريهـــا واصـــفحي عمّـــا مضـــى

واتركـــي العَـــذْل علـــى مَـــن قالـــه ... وانســـبي جَـــوْرِي إلـــى حكـــم القضـــا

فلقـــد نبّهتِنـــي مـــن رقَـــدتي ... وعلـــى قلبـــي كنيـــران الغضـــا

قال: فلما جئته خبّرني القصة وقال لي: قل في هذا شيئاً، ففكرت هنيهةً كأني أقول شعراً ثم أنشدته الأبيات

، فقال : أحسنت وحياتي ! أعدها يا حسين ، فأعدتها عليه حتى حفظها ، وأمر لي بخمسمائة دينار ، وقام ومضى إلى الجارية ، وخرجت أنا إلى حجرتي))(٢٢).

ومن اللافت ان بعض الممدوحين فضّلوا سماع الغزل وما يرافقه من غناء وانشراح ولهو ، على سماع المديح وما يدور في فلكه من رياء وكذب ومبالغات مفرطة مكشوفة سأم الممدوح سماعها ، وعرف مقصد صاحبها. فقد ذكر أبو الفرج أن الشاعر أبا حفص الشطرنجي قصد مرة القائد يحيى بن خالد ليمدحه ، فوجد عنده أصحاب الطرب واللهو ، فقال للشطرنجي : قل في دنانير المغنية بيتين يغني فيهما ابن جامع ، ولك بكلّ بيت مائة دينار ، بعد أن آثر الممدوح الغزل على المديح ، فقال أبو حفص :

أشـــــبهكِ المســـــكُ وأشـــــبهتهِ   قائمـــــةً فـــــي لونــــه قاعـــــدةٌ

لا شـــــك إذ لونُكمــــا واحـــــدٌ   أنّكُمـــــا مـــــن طينــــةٍ واحـــــدةٌ

فأمر له يحيى بن خالد بمائتي دينار(٢٣). ويطول الحديث إذا أردنا تتبع حكايات الجواري والإماء وما نتج عنها من غزل نفعي تكسبي في قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة ، فضلاً عن حكايات كثيرة من هذا النوع لعشاق تجار وموسرين استعانوا بشعراء غزليين للتعبير عمّا يختلج قلوبهم ، ويعتلج نفوسهم من مشاعر العشق والغرام.

إلاّ أنّ الباحث يعثر أحياناً على نماذج من الغزل النفعي المصلحي العباسي في نساء حرائر شريفات ، يحمل معاني العفة والحرقة والوجد والتوجع – وإن كانت هذه المعاني على قدر من التصنع والحرفنة – لأن منتجها مكلف في تمثل عواطف وأحاسيس مَن نظم على لسانه – العاشق الحقيقي الموله – وليس بدافع من خلجات نفسه وآهاتها. كما في شعر حماد عجرد وهو يتغزل بزينب بنت سليمان بن علي على لسان متيّمها محمد بن أبي العباس السفاح ، بعد أن خطبها فلم يزوّجوه فيها ، فقال محمد لحماد : قل فيها شعراً على لساني يصوّر حالي ووجدي ، فقال غزلاً كُوفيء عليه عشرة آلاف درهم ، يقول فيه(٢٤) :

زينـــــبُ مـــــا ذنبــــي ومــــاذا الـــــذي   غضِـــــبتُم منـــــه ولَـــــم تُغضَــــبوا(٢٥)

والله مـــــا أعـــــرف لـــــي عنـــــدكم   ذنبــــاً ففــــيمَ الهجـــــرُ يــــا زينــــبُ

إن كنـــــتُ قـــــد أغضـــــبتكُمْ ضــــلّةً   فاســـــتعتبوني إننـــــي أعتـــــبُ(٢٦)

عُــــودوا علـــــى جهلـــــي بـــــأحلامكم   إنّـــــي ، وإن لـــــم أذنِـــــب ، المـــــذنبُ

وعلى ما يبدو أن المكافأة المالية المغرية ، حفّزت حمادا على أن يسرح في خياله ، ويسخر شاعريته إلى أقصى ما يمكن – شأنه شأن المداح المتكسب – لينتج غزلاً يحمل هموم ومعاناة العاشق الولهان – محمد بن أبي العباس – ويوازي عطاءه المبذول ، وهذا ما نجده في غزلية ثانية في زينب ذاتها على لسان محمد يقول فيها :

ألا مَــــن لقلـــــب مســــتهام معـــــذّبِ   بحــــبّ غـــــزالٍ فـــــي الحجــــال مُربَّــــبِ

يـــــراهُ فـــــلا يســــطيعُ ردّاً لطرفِــــهِ   إليــــه حِــــذارَ الكاشـــحِ المترقّـــــبِ

ولــــولا مليـــكٌ نافـــذٌ فيـــه حُكمُـــه   لأدنـــى وصـــالاً ذاهبـــاً كـــلَّ مـــذهَبِ

تغبّـــرتُ خِلْـــفَ اللهـــو بعـــد صِـــراوةٍ   فبحـــتُ بمـــا ألقـــاه مـــن حـــبّ زينـــبِ

فلما بلغ هذا الغزل أبا زينب محمد بن سليمان نذر دم حماد عجرد ، ولم يقدر عليه لمكانه من محمد(٢٧).

وذكر صاحب الأغاني أنّ الشاعر أبا حفص الشطرنجي انقطع إلى عُليّة بنت الخليفة المهدي، وكان يقول لها الأشعار فيما يلائم الغناء ، وما يلبي حاجتها من المعاني العاطفية والوجدانية ، فتنتحل بعض ذلك ، وتترك بعضه(٢٨). ومن غزلياته التي نسبتها لها ، بعد أن دفعت له ثمنها ، قوله(٢٩) :

تَحبّــــبْ فـــإنّ الحـــبَّ داعيـــة الحـــبّ   وكـــم مـــن بعيـــدِ الـــدار مُسْـــتَوجب القُـــربِ

إذا لـــم يكـــن فـــي الحـــبِّ عتـــبٌ ولا رضـــاً | فـــــأين حـــــلاواتَ الرســـــائل والكتـــــبِ؟
تفكّـــــر فـــــإن حُـــــدِّثتَ أنّ أخـــــا هـــــوًى | نجـــا ســـالماً فـــارجُ النجـــاة مـــن الكـــربِ
وأطيـــبُ أيـــامِ الهـــوى يوُمـــك الـــذي | تُـــــرَوّع بـــــالتحريشِ فيـــــه وبالعتـــــبِ

غزل المديح التكسبي :

بإمكان الباحث أن يضيف غزلاً كثيراً جاء في مقدمات قصائد المديح التكسبي إلى هذا اللون من الغزل ، فهو يمهد للمدح التكسبي ، ويتآزر معه من أجل تحقيق ما يصبو إليه الشاعر المدّاح من منفعة مادية. ومن المفيد أن نتأمل شيئاً من آراء النقاد القدامى حول هذه المسألة ؛ لأن الغزل أحد الموضوعات المهمة التي عالجها الشعر العربي منذ القدم ، فقد كان الشعراء يتخذون هذا الفن وسيلة للتعبير عن ذواتهم وعواطفهم ، ومتنفساً دقيقاً عمّا يجيش في أعماقهم ، كذلك وظفوا هذا الفن في مقدمات قصائدهم – لاسيما المدحية التكسبية – لما له من مفعول نفاث في إثارة مشاعر الممدوحين ، ونوازعهم ومكبوتاتهم الدفينة ، وتمثيله لصبواتهم ، وبعثهم على الطرب والارتياح. فراحوا يسخرون هذا الفن بدهاء شعريّ في مناسبات مدحية تدر عليهم العطاء الوفير. لذلك عدّ بعض نقاد الأدب القدماء فن الغزل وسيلة لأغراض شعرية أخرى لاسيّما المديح ، وجعلوا الإبداع فيه سبيلاً إلى التألق والسمو في التجربة الشعرية ، فهو في هذا اللون من المدح – التكسبي – لم يكن غاية أساسية – وإن أمكن ذلك في مواضع أخرى – يقصده الشاعر المتكسب ، وإنّما هو وسيلة مهمة يُوَطّئُ به لمدائح يرجو أصحابها النوال.

ومن هنا تأتي أهمية نص ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء – ويؤكد ما ذهبنا إليه – فقد نقل رأي جماعة من أهل الأدب القدماء في الغزل الذي يأتي في بداية القصائد ، فذكر أنّه وسيلة محفّزة لغرض القصيدة الأساس ، يعمد إليه الشاعر ليداعب به عواطف ممدوحيه ، ويستميل به مسامعهم إليه ، فيهزّهم للسماح والعطاء ، ويبعثهم على المكافأة ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، عالق بالقلوب[٣٠]. ووافقه ابن رشيق في هذا التعليل، وعدّ الغزل وسيلة فاعلة لنجاح قصيدة المدح، حيث يقول : ((وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب ؛ لما فيه من عطف القلوب ، واستدعاء القبول ، بحسب ما في الطباع من حبّ الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج لما بعده...))[٣١].

وبناءً على ذلك فانّ قصد الشاعر – وما يعنينا هنا هو قصده التكسبي – ينبني عبر مقاطع القصيدة كلها ، إذ إنّ القصيدة التي هي من القصد لا تنحصر في إطار الغرض الأساس وحده ، ذلك أنّ ما يحدّده هو الهدف الذي ينحو الشاعر نحوه ، مستثمراً الدلالات الاجتماعية والقيمية والعاطفية لأغراض القصيدة أو مقاطعها معاً.

وإزاء هذه الآراء النقدية القديمة حول مقدمات النسيب أو الغزل ، وقف بعض الباحثين المعاصرين من هذه المقدمات موقفاً آخر ، إذ أضفى عليها البعض رموزاً عامة ودلالات عميقة[٣٢]. وبعضهم حمّلها معاني نفسية خفية أطلق عليها شعوراً عاماً بالفقد[٣٣]. وقد أفاض الدكتور يوسف اليوسف في الحديث عن هذه المقدمات وما دار حولها من آراء نقدية لباحثين معاصرين ، مستنتجاً بعد ذلك نظريته الطللّية[٣٤].

وعلى الرغم مما ينطوي عليه فن الغزل من قيم نفسية ودلالات شعورية ، إذ ينفث الشاعر عبره ما يخامر جنانه الخضل من هموم ومسرات ، وهذا ما لا يختلف عليه الباحثون ، شريطة أن تكون دوافعه سامية مقصودة لذاته. إلاّ اننا وعلى ضوء دراستنا للغزل المصلحي نجد أن هذا اللون لم يكن هدفاً مقصوداً ، أو غاية أساسيّة ، وهو ما ينطبق عليه كلام ابن قتيبة ومن رأى رأيه ، على أنه توطئة للمديح يتعاضد معه ليؤدي الغرضان – المدح والغزل – جنباً إلى جنب الهدف التكسبي نفسه.

ومن المعروف أن غرض المديح في أواخر العصر الجاهلي تحوّل إلى احتراف يفرغ له بعض الشعراء ، كزهير والنابغة والأعشى ، ويتخذون منه حرفة يعيشون عليها ومتجراً يتجرون به نحو البلدان. ومع ظهور القصر الأموي – لأول مرّة في تاريخ الدولة الإسلامية – ظهر الشعراء الذين التفوا حوله يمدحون خلفاءه وأمراءه طلباً لعطاياهم وجوائزهم ((ومن كل أرجاء الدولة حلقت أسراب الطير حول الحَبّ المتناثر في رحابه ، وتهافتت أسراب الفراش على الأضواء البراقة التي كانت تلمع أمامها في جنباته))[٣٥]. وما أن نصل إلى العصر العباسي حتى نجد المدح الاحترافي وقد فُتح على مصراعيه، إذ وقف كثير من الشعراء على أبواب السلطان، وانتظروا أياماً يتأملون الدخول والأذن بالإنشاد بين يدي الممدوح ، بعد أن محّصوا قصائدهم ، وثقّفوا مقدماتها ، وشحنوها بأساليب الإغراء قصد الاستمالة والجذب والاستحسان.

وما يهمنا هو الحديث عن غزل مقدمات هذه المدائح التكسبية ، وسنقتصر حديثنا ونتمثله – توخياً للايجاز – في مقدمات شاعرين هما بشار بن برد وأبي نواس ؛ لأنهما خير من وظف هذه المقدمات تلبية لرغبة الممدوح وأهوائه ، فضلاً عن أن المقدمة قطعت شوطاً مهماً من التطور والتجديد في عصرهما ، فبشار –

المخضرم – الذي عُرف بغزله يحاول الخداع، ويعمل على استمالة الآخر بمهارة الفنان المحترف في مقدماته، فيظهر الحب والجوى والحرقة، ويصطنع العاطفة ، حتى يُخيل للمتلقي في بعضها أنه عذريّ يشكو ويتوجع(*). وخير ما يمثل مذهبه هذا مقدمته التي مهّد بها لقصيدة بائية مدح فيها سليمان بن هشام ، بعد أن عرف خبر هجر حبيبته زينب له ، وعرف انشغاله بها بعد أن أقام بعيداً عنها بحرّان، فأنشد يمدحه ، محاولاً الضرب على الوتر المؤثر الحساس في مقدمة القصيدة ، ليثير مشاعر الممدوح ، ويؤجج شجونه ، ويسترعي انتباهه ، فقال :

نأتـــكَ علـــى طـــول التجـــاوُرِ زينـــبُ ... ومـــا شـــعرت أن النـــوى ســـوف تشـــعبُ

يـــرى النـــاسُ مـــا تلقـــى بزينـــبَ إذ نـــأت ... عجيبـــاً ومـــا تخفـــي بزينـــبَ أعجـــبُ

وقائلـــة لـــي حـــين جـــدَّ رحيلُنـــا ... وأجفـــانُ عينيهـــا تجـــودُ وتســـكبُ

أغـــادٍ إلـــى حـــرّانَ فـــي غيـــر شـــيعةٍ ... وذلـــك شـــأوٌ عـــن هواهـــا مُغـــرّبُ

يغَـــصُّ إذَا نـــالَ الطَّعـــامَ لِـــذكْرِكُمْ ... ويَشْـــرَقُ مـــنْ وجْـــدٍ بكُـــمْ حـــين يَشْـــرَبُ

فـــلاَ مـــذْهبٌ عـــنْكُمْ لـــهُ شَـــطَّ أوْ دَنَـــا ... سِـــواكِ، وفـــي الأرْضِ الْعريضـــة مَـــذْهبُ

علَـــى النّـــأي محْـــزُونٌ وفـــي الْقُـــرْب مُغْـــرَمٌ ... فيـــا كَبِـــداً أيَّ الطَّـــريقيْن أرْكـــبُ

إذَا عَـــرَضَ الْقـــوْمُ الْحـــديثَ بـــذكْرها ... أنـــنَّ كمـــا أنَّ الْمـــريضُ الْمُصَـــوَّبُ

فنالت استحسان سليمان ، وكانت عنده كالماء البارد في فم الصادي الولهان ، فوصله بخمسة آلاف درهم(٣٦) ، وما هذا من بشار إلاّ حديث مصطنع من صيّاد ماهر يعرف اقتناص صيده.

ويطالعنا هذا اللون من الغزل في مقدمات أبي نواس ، وإن كانت أقّل عدداً من مقدمات بشار ومسلم بن الوليد ؛ لأنه ثائر على التقاليد والأعراف العربيّة ، لاسيّما فيما يتصل بالصحراء وحياة البادية. انّه حسب قول د. يوسف حسين بكار : ((لجأ إليها مضطراً ... ولولا المدح وتيار المحافظة على القديم لما وجدنا لها عنده من أثر))(٣٧). ومنها ما جاء في قصيدة في مدح الرشيد وقف في مقدمتها يبكي الديار وكأنّ الذكريات تراوده ، وخيال الحبيب المفارق يداعبه ، وهو في حقيقته بكاء مصطنع مقصود ما كان ليكون لولا أنه في قصيدة مدح لأمير عربيّ يهش لسماع هذه المعاني وما تحمله من ذكريات وتداعيات نفسية ؛ لأننا لا نصدق من أبي نواس وقوفه على الأطلال والدمن والرسوم الدارسة ، ومذهبه في هذا معروف للدارسين موثق في أشعاره وأقواله. لذلك يقف الباحث شاكّاً في صدق بكائه على ديار أحبته ورسومها في مقدمة قصيدته المدحية للرشيد(٣٨):

لقَـــدْ طـــالَ فـــي رَسْـــمِ الـــدّيارِ بُكـــائي ... وَقَـــدْ طـــالَ تَـــرْدادي بِهـــا وَعَنَـــائي

كَـــأنّي مُرِيـــغٌ فـــي الـــدّيارِ طَرِيـــدَةً ... أرَاهـــا أمَـــامي مَـــرّةً وَوَرائـــي(٣٩)

ثم يتخلص مسرعاً ، وكأنه سأم هذا الوقوف الاضطراري ، فيقول :

فلَمّـــا بَـــدا لـــي اليـــأسُ عَـــدّيْتُ نـــاقَتي ... عـــن الـــدّارِ وَاســـتَوْلى عَلـــيّ عَزَائـــي

ويتحوّل بعد هذا البيت ليجد ضالته في ذكر الخمرة ووصفها ، ومنها إلى مدح الرشيد. ومما يسجل لأبي نواس من حذق ومهارة هو مزجه الغزل بالمدح مزجاً فيه من الطرافة والشاعرية والحرفية الشيء الكثير ، وهذا ما نلحظه في قوله(٤٠) :

تقـــول غـــداة البـــين إحـــدى قيـــانهم ... لـــي الكبـــدُ الحـــريُّ ولـــك الصـــبرُ

وقـــد خنقتهـــا عبـــرة ، فلـــدمعها ... علـــى خـــدّها خـــدٌ وفـــي نحرهـــا نحـــرُ

وقالـــت : إلـــى العبـــاس ؟ قلـــتُ فمـــن إذاً ... ومـــالي عـــن العبـــاس معـــدى ولا قصـــرُ

فمـــا عَجْـــزُ كفيـــه أخـــاف مـــن النـــدى ... ولكـــن مـــن ألاّ يقـــوم لـــه الشـــكرُ

والأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه كثيرة ، ومهما يكن فانّ الشاعر حين تكون له مصلحة عند الممدوح ؛ فإنّه يركز تفكيره كلّه ، ويشحذ قريحته ، ويسخر ألاعيبه وحيله التي تمكنه من الحصول على غاياته ومآربه.

الغزل المغنّى :

إذا كان غزل المقدمات في قصائد المديح التكسبي يوضع بين يدي القصائد ، ولا يتخذ غاية لذاته ، إنما كان يُتخذ وسيلة مساعدة للكسب ((فهو أشبه بمقدمة موسيقية يسوقها الشاعر أمام غايته))[٤١] فان الباحث يجد كماً غزيراً من الغزل المغنّى المستقل في مقطوعات قائمة بنفسها ، نُظِم لغاية مصلحية نفعية مقصودة ؛ وذلك من أجل الغناء في محافل الخلفاء والأمراء ... أو في ديارات الأنس ، ومنتديات الطرب واللهو العامة ، وإذا كان هناك مغنٍّ محترف الغناء ، ومثله ملحن يوّقع الألحان والأنغام ، فإن وراء هذين الفنانين المتكسبين بفنهما ، كاتب النص الغنائي الذي يعمل جاهداً لإرضاء ذائقة المتلقي المترف المتحضر ، حتى يضمن لأثره الانتشار والشهرة ، ويحقق رغبة المتلقي ويُمكّن لغزله من نفسه.

ولعل خير ما يسعف الشاعر المتغزل في هذا المجال ، هو أن الشعر العربي القديم نشأ في أجواء غنائية موسيقية ، إذ تركت تلك الحاضنة آثاراً ملموسة فيه ، بعضها في قوافيه وتقطيعاته وموسيقاه الداخلية ، وبعضها في أوزانه القصيرة أو المجزوءة الراقصة ، فليس من شك إنها ظهرت تحت تأثير الغناء والإنشاد، فهي تعيد للأذن تصفيق الأيدي وقرع الطبول ونقر الدفوف؛ لذلك كان الأعشى قديماً يسمى ((صنّاجة العرب)) لطلاوة شعره وحلاوة موسيقاه.

فإذا ما تركنا العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي والأموي ، عشنا موجة واسعة من الغناء والرقص على أنغام الموسيقى ، كان لها تأثير شديد في نمو شعر الأغنية الغزلية ، لاسيّما في الحجاز ، إذ عُرف هذا العصر بكثرة الغناء والمغنين وأشتهر منهم طويس وسائب والدلاّل وبرد الفؤاد ، ثم تبعهم ابن سريج وابن مسجح والغريض وابن محرز بمكة ، ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة ونافع الخير وبُديح المُليح بالمدينة. أما المغنيات فقد امتلئت بهنّ الحواضر العربية منهنّ جميلة وسلامة القس وعزّة الميلاء وحبّابة وبلبلة ولذّة العيش وسعيدة والزرقاء وعقيلة وخليدة وفرعة والشماسيّة وغيرهن كثير[٤٢]. وجميع هؤلاء المغنين والمغنيات يبحثون ويمحّصون – بذائقة فنية عالية وإحساس مرهف – عن نصوص غزلية راقية المستوى لإحياء حفلاتهم الغنائية.

ومن الطريف أن نجد في هذا العصر – كما في عصرنا الحاضر – شاعراً كأعشى هَمْدان يلزم أحمد النصبيّ المغني ، يؤلف له قطعاً من الغزل ليغنيها ، ومن ثم يقتسما – المطرب وكاتب النص – أجرهما[٤٣]. ومن أغانيهما : (حَيِّيا خولة مني بالسلام) ، و(لمن الظعائنُ سيرُهنّ ترجُّفُ) وأغنية (يا أيها القلب المطيعُ الهوى)[٤٤].

وكان المغنون كثيراً ما يضطرون الشعراء إلى أن يؤلفوا لهم قطعاً بلغة عذبة رقيقة تقترب إلى الشعبية ، وبأوزان قصيرة راقصة ، كما صنع المغني ابن عائشة بعروة بن أذينة ، إذ طلب منه أن يصنع له غزلاً سهلاً ليّناً من الهزج ، فصنع بناءً على طلبه[٤٥] :

سُـــــلَيْمَى أزمعَـــــتْ بَيْنـــــا ... فـــــأيْنَ تقولُهـــــا أيْنـــــا

وقـــــد قالَـــــتْ لأتـــــرابٍ ... لـــــها زُهْـــــرٍ تلاقَيْنـــــا

تَعـــــالَيْنَ فقـــــد طـــــابَ ... لنـــــا العَـــــيْشُ تَعالَيْنـــــا

فـــــأقْبَلْنَ إليهـــــا مُسْـــــ ... ـــــرِعاتٍ يَتَهادَيْنـــــا

إلـــــى مِثْـــــلِ مَهـــــاةِ الرَّمْـــــ ... ـــــلِ تكسُـــــو المَجْلِـــــسَ الزَّيْنـــــا

إلـــــى خَـــــوْدٍ مُنَعَّمَـــــةٍ ... حَفَفْـــــنَ بهـــــا وفَـــــدَّيْنا

تَمنّـــــيْنَ مُنـــــاهُنَّ ... فَكُنّـــــا مـــــا تَمَنَّيْنـــــا

ولعل لوازم المهنة ، واكتمال أدواتها حتّمت على بعض الشعراء إتقان صنعة الغناء حتى يستطيعوا ان يؤلفوا شعراً إيقاعيّاً يتفق وألحان المغنين وأصواتهم. وهكذا إئتلف المغنون والملحنون بالشعراء الغزليين ، إذ دفعت المصالح الاحترافية والفنية دفعاً قوياً إلى تآخي الفنين – الشعر والغناء – وتآلفهما من أجل الانتفاع المالي المشترك. فقد ذكر صاحب الأغاني[٤٦] ، انّ الشاعر موسى شهوات قال لمعبد المغني : أأنظم غزلاً لحمزة بن عبد الله بن الزبير ، وتغني أنت فيه ويكون عطاؤنا بيني وبينك؟ فوافقه الرأي وعزما على ذلك ، فقال موسى غزلاً رقيقاً غناه معبد في مجلس حمزة أصابا فيه مالاً وفيراً ، منه :

شـــاقَتْني اليـــومَ حبيـــبٌ قـــد ظعـــنْ ففـــؤادي مُسْـــتَهامٌ مُـــرتَهَنْ

إنّ هنـــــداً تيّمتنـــــي حِقْبـــــةً ثـــم بانـــتْ وهـــي للـــنفس شَـــجَنْ

فتنـــــة ألحقهـــــا اللهُ بنـــــا عائـــذٌ بـــاللهِ مـــن شـــرِّ الفـــتنْ

وفي العصر العباسي ازدهر الغناء أيّما ازدهار ، واشتهر فيه كثيرون من أمثال إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ومخارق وعلّوية .. وغيرهم ، حتى عمّت هذه الظاهرة أولاد الخلفاء ، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أنه ((ما اجتمع في الإسلام قط أخٌ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عُليّة ، وكانت تُقدّم عليه))[٤٧].

ومن يقرأ كتاب الأغاني يخيل إليه انّه لم يكن في هذا العصر إلاّ الغناء والمغنون والمغنيات، الأمر الذي أنعش سوق النص الغزلي ورفع من قيمته المالية والفنية معاً. إذ ازداد الطلب عليه ، وراجت بضاعته ، بوصفه ركناً مهماً من أركان الأغنية العباسية ، فالشاعر يقول الغزل ، ويطوّع اللغة استجابة لرغبة المغنين والملحنين بوجه خاص .. يطلبونه ليلحنوه وليغنوا به ، وحين يعرف الشاعر من أمر شعره أنه سيُغنى فانّ ذلك تارك ظله لا محالة على صياغته وتراكيبه ، وفي صوغه الفني ، وفي صوره وتشابيهه. والشاعر حينذاك لا يفكر بالتعمق في هذه المناحي ولا يحاول التعقيد والمعاظلة ، وإنّما يحاول أن يجد الإحساس الإنساني المشترك بين المتلقين جميعاً ، ثم يحاول أن يجد له بعد ذلك التعبير المشترك فيؤثر الرقة ويطلب اللين ، وقد يقف عند الذي يعرف من ذوق العصر ، وقد يرتفع إلى مكانة المتلقي ، إذ أنّ هناك صلةً ما بين مُنتج الأثر الفني وبين الذين يتوجه إليهم المُنشئ ، وهي صلة لها خطرها ؛ لأنها هي التي توجّه هذا الاثر وجهة معينة تتلاءم مع الذين يقصدهم ، وهي التي تلوّنه بما يروق لهم من لون ، وتعيش في مثل مستواهم اللغوي وأقدارهم التعبيرية ؛ لهذا سعى المغنون يبحثون بجدٍّ عن النصوص العذبة النادرة التي لم تسمع بعد ، يبذلون أموالاً لشرائها ، لتعود عليهم بنفع أجزل ، وشهرة أوسع ، ومن ذلك ما رواه صاحب الأغاني عن إبراهيم الموصلي الذي ابتاع شعراً مُلحّناً لعلّوية المغني العباسي الشهير قائلاً له : ((إني قد صنعت صوتاً ما سمعه منّي أحد بعد ، وقد أحببتُ أن أنفعك وأرفع منك بأن ألقيه عليك .. فانتحلْهُ وادّعه. فلست أنسبه إلى نفسي ، وستكسب به مالاً))[٤٨]. فلقّنه قوله :

ألا أنّ لـــي نفســـين نفســـاً تقـــول لـــي تمتـــع بليلـــى مـــا بـــدا لـــك لينُهـــا

ونفســـاً تقـــول اسْـــتَبقِ وُدَّكَ واتّئـــدْ ونفســـك لا تطـــرح علـــى مَـــن يُهينهـــا

فحفظه علّوية ، وترقب به الفرصة السانحة ، حتى مثل به يوماً أمام المأمون ، وهو في نزهة نهرية بدجلة ، فغناه ، فاستحسنه جداً وطرب عليه ، وقال لعلوية : ((ما أجد لك مكافأة على هذه الهدية إلاّ أن أتحوّل عن هذه الحراقة (السفينة) بما فيها وأسلمه إليك أجمع ، فتحوّل إلى أخرى وسُلّمت الحرّاقة بخزانتها وجميع آلاتها إليّ وكل شيء فيها ، فبعت ذلك بمائة وخمسين ألف درهم ، واشتريت بها ضَيعَتَي الصالحية))[٤٩].

الخلاصة :

وبعد فقد درسنا في هذا البحث لوناً من ألوان الغزل العربي. ومن الواضح أنه جزء مهم من التراث الشعري القديم ، وصورة متفاعلة مع حياة المجتمع آنذاك ، يعكس ظلالها ، وينقل حكاياتها وأحداثها ، ويعبّر عما أصابها من تجدد وتطور وتحضر. إذ يرتبط هذا اللون من الغزل بالبعد السوسيولوجي ، بوصفه واقعة اجتماعية معاشة على أرض الواقع ، قائمة بين طرفين تربطهما مصلحة نفعية. وهو في جلّه نتيجة حقيقية لموقف شعبي أو حكاية اجتماعية، أو مفارقة حياتية ما، فضلاً عن كونه تعبيراً صادقاً لروح ذلك العصر ، وتعلق أهله بالطرب والغناء.

والملاحظ أن هذا اللون من الغزل لا يمكن تذوّقه والوقوف على كنهه ، إلاّ من خلال معرفة حكايته أو الحدث الباعث عليه. إذ لم يكن في حقيقته تنفيساً عن هموم صاحبه – الشاعر – وجلاءً لأساه ، ووصفاً لآماله ، فهو ليس عملاً يصدر عن الطبع ، أو تلبية لعاطفة الشاعر الجياشة ، أو الإفصاح عن تجربته الذاتية المحضة

– وان كنا لا نعدم ذلك بتاتاً – إنّما هو صناعة مقصودة يلجأ إليها الشاعر المحترف في شيء من التعمد والمراوغة الفنية أو الأسلوبية، يصطاد بها عواطف السامعين، ويستدعي أسماعهم ، ويميل قلوبهم ، فيوطئ بذلك لأغراض أو منافع يرجو تحقيقها لغيره (زواج ، رتق علاقة عاطفية ، إشاعة جمال شريفة أو إشهار مكانتها، تصريف بضاعة كاسدة ، بث روح البهجة والمرح في نفوس السامعين...) يقابل ذلك كلّه ما يحصل عليه الشاعر من كسب مادي جزاء لنصّه المصنوع لهذا الغرض.

وبناءً على ذلك يصح لنا القول : إن هذا اللون من الغزل مزيجٌ من الغاية والوسيلة معاً ، تأتلفان في نفس الشاعر ، لتحقيق مآربه المادية ، وفي الوقت ذاته تحقيق غاية الآخر ، الذي يتوجه الشاعر بغزله من أجله. لذلك فاننا لا يمكن أن نبعد هذا الغزل عن الإطار الإنساني العام؛ لأنه – وان كان مصطنعاً عند صاحبه – يعبّر عن عواطف حقيقية جامحة لآخرين ، رآها الشاعر وسمعها وعاش أحداثها.

وهذا اللون من الغزل سجل خالد نستشف من صفحاته كثيراً من أحوال المجتمع ، ونستنبط منه – أيضاً – أن حبّ العرب للمرأة أمراً روحيّاً سامياً، مهما حلقّ في أجواء الحسيّة أو الجسدية، فهم لم يكونوا همجاً سمجاً في نيلها والدنوّ منها ، بل هم يستميلوها بالكلمة السيالة الرقيقة ، ويجتذبوها بالعاطفة والاستلطاف والتودّد ، ولعل الغزل أهم ما يجسد تلك المشاعر والأحاسيس ، فهو عندهم أقوى سلطاناً من السلطة والمال والجاه والحسب والنسب ، وليس أدلّ على جدوى هذا السلطان الروحي (الغزل) في استهواء المرأة ما مرّ بنا – في بحثنا – من توسل الخلفاء والأمراء بالشعراء ، والاستعانة بهم ، والبذل لهم ؛ من أجل إيصال مشاعرهم بلغة روحية موحية ، لكسب ودّ محبوباتهم ، ورضاهنّ عنهم ، وان أمكن لهم نوالهنّ بقوّة السلطان ، ووفرة المال ، وسموّ الجاه .. إلاّ أن هذه الشخصيات المتعالية الفخورة بذكورتها ، لا تلبث ان ترد إلى دنيا الواقع ، فتنصاع مذعنةً صاغية لِلحن الوجود ، وأنشودة الحياة ، لغة الحب الإنسانية منذ الأزل.

وهكذا فإنّ الانعكاس الاجتماعي يؤثر في الأدب بصورة مباشرة وضرورية ، ويجعل من تعبيره الأكثر وضوحاً وصراحة ، إذ لا وجود لتباعد ممكن بين هذا التعبير والواقع المُعبّر عنه.

لذلك وجدنا للشعر وظائف اجتماعية نادرة لا تخلو من طرافة، حين يصبح الشعر وكالة أنباء، أو وسيط زواج ، أو مروّجاً لبضاعة ، أو مكان استراحة ، أو يقوم بمهمة السمسار أو الطبال ... مع علمنا بأن مهمة الشعر فنية تكمن في الإبداع والموقف الخاص من اللغة والأسلوب الدال ، والفكر المبتكر الممتع.

الهوامش :

(١) تعد دراسة الدكتور عناد غزوان ((المرثاة الغزلية في الشعر العربي)) السباقة في هذا المجال ، إذ تعود إلى سنة ١٩٧٤. وينظر فصل المرثاة الغزلية في كتاب ((قصيدة الرثاء ، دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام)) ، للدكتور حسين جمعة.
(٢) ينظر : حديث الأربعاء : ٢٥٠/١-٢٥١.
(٣) ينظر : الغزل في العصر الجاهلي : ٣٠٥-٣١١.
(٤) ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ٣٥٤. وقد أفرد غانم جواد رضا كتيباً بعنوان (الغزل السياسي في العصر الأموي) مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٢.
(٥) الأغاني : ٨٧/٩.
(٦) المصدر نفسه : ٨٤/٩.
(٧) ينظر : المصدر نفسه : ٨٥/٩. وينظر القصيدة في شرح ديوان الأعشى : ١١٨-١٢٣.
(*) ملل : اسم موضع في طريق مكة بين الحرمين. معجم البلدان ، مادة (ملل) : ٢٢٥/٥.
(٨) الأغاني : ٢٢٦/١-٢٢٧.
(٩) المصدر نفسه : ٢٣٠/١-٢٣١.
(١٠) ينظر : المصدر نفسه : ١٢٧/١٠. وينظر حكاية مشابهة مع الشاعر متوكل الليثي في الأغاني : ١١٧/١٢.
(١١) ينظر : المصدر نفسه : ٣٤/٣. وينظر الأبيات وقصتها في ديوان شعر مسكين الدارمي ، تحقيق : كارين صادر : ٤١.
(١٢) ينظر : المصدر نفسه : ٧٧/١ ، ٨٠ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٤٧.
(١٣) المصدر نفسه : ٦٩/١.
(١٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٨٠.
(١٥) ينظر : الأغاني : ١٢٤/١.
(١٦) ينظر : المصدر نفسه : ١٢٧/١٢.
(١٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣٣/٢-٢٣٤. وينظر الغزليتان في ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٣٢ ، ٤٤.
(١٨) ينظر : الأغاني : ٧٧/٧.
(١٩) ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٦٣ ، ٦٤.

(٢٠) ينظر: الأغاني: ١٣١/٣. وينظر الأبيات الغزلية في ديوان بشار بن برد: ١٥٧/٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠.
(٢١) ينظر: الأغاني:٢٣٥/١٦.وينظر البيتان في ديوان العباس بن الأحنف،شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي:٢٢١.
(٢٢) الأغاني : ١٢٢/٧-١٢٣.
(٢٣) المصدر نفسه : ٣٦/٢٢.
(٢٤) ينظر : المصدر نفسه : ٢٤٠/١٤.
(٢٥) لم تغضبوا : على صيغة البناء للمجهول ، أي لم آت ما يغضبكم.
(٢٦) استعتب : طلب العتبى ، أي الرضا .
(٢٧) ينظر : الأغاني : ٢٤٤/١٤.
(٢٨) ينظر : المصدر نفسه : ٣٣/٢٢.
(٢٩) المصدر نفسه : ٣٣/٢٢-٣٤.
(٣٠) ينظر : الشعر والشعراء : ٢٠.
(٣١) العمدة : ٢٢٥/١.
(٣٢) ينظر : دراسة الأدب العربي ، د. مصطفى ناصف : ١٥٨ ، ٢٣٦-٢٣٧.
(٣٣) ينظر : في الشعر الإسلامي والأموي ، د. عبد القادر القط : ٢١٩.
(٣٤) ينظر : مقالات في الشعر الجاهلي : ١١٧ وما بعدها.
(٣٥) في الشعر الأموي (دراسة في البيئات) ، د. يوسف خليف : ٨٧.
(*) هذا لا يعني أننا ننفي عن بشار هذه السمة في غزله ، فله غزل ذاتي يقصده قصداً، صادق العواطف ، يقترب إلى العذرية إلى حدّ ما ، منه ما جاء في محبوبته عبدة.
(٣٦) ينظر : الأغاني : ١٥١/٣-١٥٢ . وينظر القصيدة في ديوان بشار بن برد : ٣١٢/١-٣٢١.
(٣٧) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : ٧٧.
(٣٨) ديوان أبي نواس : ٢٣ .
(٣٩) المريغ : الطالب .
(٤٠) ديوان أبي نواس : ١٥.
(٤١) الشعر والغناء في مكة والمدينة ، د. شوقي ضيف : ٣١٨.
(٤٢) ينظر : الأغاني : ١٤٩/٨.
(٤٣) ينظر : المصدر نفسه : ٥١/٦.
(٤٤) ينظر : المصدر نفسه : ٥١/٦.
(٤٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٥٤/٢-١٥٥.
(٤٦) ينظر : المصدر نفسه : ٢٤٦/٣-٢٤٧.
(٤٧) المصدر نفسه : ١٣٠/١٠.
(٤٨) المصدر نفسه : ٢٣٤/١١.
(٤٩) المصدر نفسه : ٢٣٤/١١.

المصادر والمراجع :

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، د. يوسف حسين بكار ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، (د.ت).
(٢) الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، والدكتور إبراهيم السعافين ، والاستاذ بكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
(٣) تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط٤ ، ١٩٦٤م.
(٤) حديث الأربعاء ، د. طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م.
(٥) دراسة الأدب العربي، د. مصطفى ناصف ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
(٦) ديوان أبي نواس، شرحه وضبطه وقدّم له الاستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
(٧) ديوان بشار بن برد ، لناشره ومقدمه وشارحه ومكمله محمد الطاهر بن عاشور ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
(٨) ديوان شعر مسكين الدارمي (ت٨٩هـ) ، تحقيق كارين صادر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠م.
(٩) ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
(١٠) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .
(١١) الشعر والشعراء ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق : مفيد قميحة والاستاذ محمد

أمين غناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
(١٢) الشعر والغناء في مكة والمدينة لعصر بني أمية ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، ١٩٧٦م.
(١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط٣ ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
(١٤) الغزل السياسي في العصر الأموي ، غانم جواد رضا ، مطبعة جامعة البصرة ، البصرة ، ١٩٨٣م.
(١٥) الغزل في العصر الجاهلي ، د. أحمد محمد الحوفي ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، (د.ت).
(١٦) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٩ ، ١٩٧٦م.
(١٧) في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٦م.
(١٨) في الشعر الأموي (دراسة في البيئات) ، د. يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩١م.
(١٩) قصيدة الرثاء (دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام) ، د. حسين جمعة ، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ١٩٩٨م.
(٢٠) المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د. عناد غزوان إسماعيل ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٤م.
(٢١) معجم البلدان ، ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت).
(٢٢) مقالات في الشعر الجاهلي ، د. يوسف اليوسف ، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ، الجزائر ، (د.ت).